

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

٤

م - م

عمير

م - م

بن سعد

نانيس محمد عزت

عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ

دخل أَيْمَنُ من بابِ المنزلِ وهو غاضِبٌ وصاح : انظُرْ
يا أبى ماذا فعلتُ « بِسْمَةِ » . لقد أفشتُ سِرَّنَا ،
وأضاعت علينا غُصْرَ المفاجأة .

قال الأبُ مُهدِّئاً أَيْمَنَ : إهدأ يا أَيْمَنَ ، ولا ترفع
صَوْتَكَ فى حُضورِ من هو أكبرُ منك سِنًا . وقل لى فى
هَدوءٍ : ماذا فعلتُ بِسْمَةِ ؟

قال أَيْمَنُ : تعلَّم يا أبى أنَّ عيدَ ميلادِ صديقنا مُحَمَّدٍ ،
هو يومُ الحَمِيسِ القادمِ ، وقد اتَّفَقْنَا جميعًا - أنا وبِسْمَةُ
وأصدقائُنَا فى النَّادى - أن نحتفلَ به فى حفلٍ صَغِيرٍ ،
نقدِّمُ له فيه هَدِيَّةً مُناسبةً ، ويَكُونُ مفاجأةً له .
قال أبوه : فِكْرَةٌ جَمِيلَةٌ ، وتعبَّرُ عن شعورٍ نبيلٍ .

قال أيمن : ولكنَّ بِسْمَةَ أَفْشَتِ السَّرَّ ، فنقلتهُ إلى أختِ مُحَمَّدٍ ، التي نقلتهُ بدورها إلى مُحَمَّدٍ ، فنشلتِ المفاجأة التي أعددناها .

قال أبوها غاضباً : أحقَّ حصلَ منكِ هذا يا بِسْمَةَ ؟
أحنتِ بِسْمَةَ رأسها في خجلٍ ، وقالت : إنما أردتُ أن أكونَ أوَّلَ من يُهنِّئُه بعيدِ ميلاده ، ولم أكنُ أعلمُ أنَّ هذا سيُغضبُ الجميعَ مِنِّي .

قال أبوها : من حقِّهم أن يغضبوا يا بِسْمَةَ ، فقد أفسدتِ عليهمَ عُتَصْرَ المفاجأة . ثمَّ إنَّ للصُّحبةِ آداباً يجبُ اتِّباعُها ، فيجبُ ألاَّ ننقلَ الكلامَ من جهةٍ إلى جهةٍ أخرى .
قال أيمن : أتَعلِّمُ يا أُمِّي أنَّ جميعَ أصدقائنا يقولون :
إنَّ بِسْمَةَ « فتانة » ؟

سمِعَتِ بِسْمَةَ ذلكَ ، فانخرطتُ في البكاء ، فقال لها أبوها : لا تبكى يا بِسْمَةَ . وسأقصُّ عليكِما قصةَ أحدٍ

الصَّحَابَةِ ، هُوَ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ، وَأَعْتَقَهُ أَنْتَ سَتَسْتَفِيدِينَ مِنْهَا يَا بُنَيَّتِي :

أَسْلَمَ عُمَيْرٌ وَهُوَ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ — وَكَانَ مِنَ الْأَنْصَارِ — فَنَشَأَ عَلَى تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ وَتَرَعَّرَ فِي ظِلِّ آدَابِهِ الْكَرِيمَةِ .

كَانَ لِعُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ قَرِيبٌ لَهُ غَنِيٌّ ، اسْمُهُ الْجَلَّاسُ بْنُ سُورَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ . وَكَانَ الْجَلَّاسُ يَعْطِفُ عَلَيْهِ كَثِيرًا وَيُحْسِنُ مُعَامَلَتَهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ أَعْلَنَ الرَّسُولُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — اسْتِعْدَادَهُ لَغَزْوِ الرُّومِ — فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ — وَالْجَمِيعُ يَعْلَمُونَ مَدَى قُوَّةِ الرُّومِ ، وَبُعْدَ الْمَسَافَةِ إِلَيْهِمْ ، وَعِظَمَ الْمَشَقَّةِ فِي حَرْبِهِمْ . فَظَهَرَتِ النُّفُوسُ عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَبَدَأَ الْمُنَافِقُونَ يَكْشِفُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَعَنْ وُجُوهِهِمْ الْقَبِيحَةَ ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْجَلَّاسُ بْنُ سُورَيْدٍ ، فَتَدَ

تَقَاعَسَ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي إِعْدَادِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى
الرُّغْمِ مِنْ تَسَابُقِ النَّاسِ جَمِيعًا فِي هَذَا السَّبِيلِ ، فَقَدَّمَ
عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَلْفَ
دِينَارٍ ذَهَبًا ، وَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ مِائَتِي أَوْقِيَّةٍ مِنَ
الذَّهَبِ ، وَتَسَابَقَتِ النِّسَاءُ فِي خَلْعِ حُلِيِّهِنَّ وَتَقْدِيمِهَا
لِلرُّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُشَارِكُنَ بِهَا فِي إِعْدَادِ
الْجَيْشِ . وَعَزَّ عَلَى عُمَيْرٍ أَنْ يَرَى قَرِيبَةَ الْجَلَّاسِ ابْنَ سُؤَيْدٍ
- عَلَى الرُّغْمِ مِنْ سَعَةِ رِزْقِهِ وَغِنَاهُ - يَتَقَاعَسُ عَنِ
الْمُشَارَكَةِ فِي هَذَا السَّبِيلِ . فَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ فِي تَأَخُّرِهِ
وَإِخْجَامِهِ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِيهِ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الْجَلَّاسُ بِقَوْلِهِ :
- إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فِيمَا يَدَّعِيهِ مِنَ النُّبُوَّةِ ،
فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ .

تَسَاءَلَ أَيْمَنُ : مَاذَا كَانَ يَعْنِي بِقَوْلِهِ هَذَا يَا أَبِي ؟

قال أبوه : كَذَبَ الْجَلَّاسُ بِقَوْلِهِ هَذَا مُحَمَّداً ، وزعمَ
أنَّهُ مُدَّعٍ لِلنُّبُوَّةِ .

قال أيمن : لقد ارتدَّ بقَوْلِهِ هَذَا عَنِ الْإِسْلَامِ .

قال أبوه : وهذا ما أفرغَ عُمَيْرًا وحرَّ في نفسه . فهذا
هو يسمعُ قريته الذي طالما عطفَ عليه وأحسنَ
معامَلته ، يُسِفُّه الرُّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
ويعلنُ عن كُفْرِهِ بِهِ . واختارَ عُمَيْرٌ ماذا يفعل ؟ أيبلغُ
الرُّسُولَ بما عَلِمَ ، فيكونُ قد أخلَّ بآدابِ المجلس أم
يتكتمُ ما سمَّعه ، فتكونُ خيانةٌ للدينِ وللرُّسُولِ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟

قالت بَسْمَةُ : حقاً إِنَّهُ مَوْقِفٌ خَرَجَ ، فكيف استطاعَ

أن يخرجَ من هذا المأزق ؟

قال أبوه : راعى عُمَيْرٌ آدابَ المجلس ، فلم ينقل
لأحدٍ ما قاله الجَلَّاسُ ، وفي نفسِ الوقت ، أخبرَ

الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا يُضْمِرُهُ الْجَلَّاسُ
 مِنْ فِتْنَةٍ وَنِفَاقٍ .

قَالَ أَيُّمَنُ : أَهِيَ لُغْزٌ ؟ كَيْفَ أَمَكَّنَهُ أَنْ يُؤَفِّقَ بَيْنَ
 الْأُمْرَيْنِ ؟

ضَحِكَ أَبُوهُ وَقَالَ : قَالَ عُمَيْرٌ لِلْجَلَّاسِ : لَقَدْ قُلْتَ
 مَقَالَةً إِنْ ذَكَرْتُهَا فَضَحْتُكَ ، وَإِنْ أَحْفَيْتُهَا خُنْتُ أَمَانَتِي ،
 وَأَهْلَكْتُ نَفْسِي وَدِينِي . وَقَدْ قَرَّرَ رَأْيِي أَنْ أَمْضِيَ إِلَى
 الرَّسُولِ وَأُخْبِرَهُ بِمَا قُلْتُ ، فَكُنْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ .
 وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ عُمَيْرًا أَدَّى أَمَانَةَ الصُّحْبَةِ ، فَلَمْ يَقُمْ
 بِدَوْرِ الْمَتَسَمِّعِ الْوَاشِي ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ أَدَّى حَقَّ
 دِينِهِ ، فَكُشِفَ عَنْ نِفَاقٍ قَرِيبِهِ . كَمَا أُعْطِيَ الْجَلَّاسُ
 الْفُرْصَةَ لِيَرْجِعَ عَنْ كُفْرِهِ ، وَيَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ .

وَمَضَى عُمَيْرٌ وَأَخْبَرَ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ - بِأَمْرِ الْجَلَّاسِ . وَطَلَبَ الرَّسُولُ الْجَلَّاسَ وَسَأَلَهُ ،

فَأَنكَرَ الْجَلَّاسُ مَقُولَتَهُ ، بَلْ وَحَلَفَ بِاللَّهِ كَذِبًا أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ
مَا نُسِبَ إِلَيْهِ . فَشَكََّ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ فِي عُمَيْرٍ ، وَعَزَّوْا
ذَلِكَ إِلَى صِغَرِ سِنِّهِ .

وَلَكِنْ ظَهَرَتِ الْحَقِيقَةُ ، وَتَنَزَّلَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ
تَوْكَدُ صِدْقَ عُمَيْرٍ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ
يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

فَارْتَعَدَ الْجَلَّاسُ مِمَّا سَمِعَ وَأَعْلَنَ تَوْبَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى .
وَقَالَ : صَدَقَ عُمَيْرٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ،
وَأَسْأَلُكَ اللَّهُ أَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتِي .

فمَدَّ الرَّسُولُ يَدَهُ وَأَمْسَكَ أَذُنَ عُمَيْرٍ ، وَقَالَ لَهُ :
وَقَدْ أَذُنُكَ يَا غُلَامُ مَا سَمِعْتَ وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ .

وظَلَّ الْجَلَّاسُ يَذْكُرُ فَضْلَ عُمَيْرٍ عَلَيْهِ حَتَّى آخِرِ
أَيَّامِهِ ، فَكَانَ دَائِمًا يَقُولُ : جَزَاهُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا ، فَقَدْ
أَنْقَذَنِي مِنَ الْكُفْرِ ، وَأَعْتَقَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ .

قَالَ أَيْمَنُ : إِنَّهُ حَقًّا غُلَامٌ ذَكِيٌّ ، تَصَرَّفَ بِحِكْمَةٍ
وَرَجَاحَةٍ عَقْلٍ . وَمَاذَا عَنْهُ يَا أَبِي ، وَكَيْفَ سَارَتْ حَيَاتُهُ
بَعْدَ مَا كَبُرَ ؟

قَالَ أَبُوهُ : كَانَ عُمَيْرٌ بَعْدَ مَا كَبُرَ مِثَالًا حَيًّا لِلزُّهْدِ
وَالْتَّقْشُفِ وَالْوَرَعِ ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي عَهْدِ سَيِّدِنَا
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، ثَانِيِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ . فَقَدْ وَلَّاهُ
إِمَارَةَ حِمَصَ الشَّامِ . وَحَزِنَ عُمَيْرٌ لِذَلِكَ وَلَمْ يَفْرَحْ ،
فَهُوَ يُفَضِّلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَنِ الْوِلَايَةِ وَتَبِعَاتِهَا .

ولكنها المسئولية التي يجب على الجميع أن يُشارِكوا فيها .

وسافر عُمرُ إلى الشام ، ومضى عام لم يبعث خِلاله بآية رسالة أو أية أموال لبيت المال . وقلق الخليفة عُمرُ ابن الخطاب ، وبعث إليه يستدعيه .

وأخذ عُمرُ معه كل ما يملك من متاع ، وشد الرحال إلى المدينة ، فما إن وصل إليها حتى ذهب ليقابل الخليفة .

وتعجب الخليفة من مظهر عُمر ، فقد أغياه السفر ، وغلاه الغبار ، وهزل جسمه وضعف . وسأله الخليفة مُستفسراً :

— أجنّت من الشام شيئاً على قدَميك ؟ أليست لك دابة تركبها ؟

فردُّ عليه غمير : لم يُعطوني دابةً ، وأنا لم أطلتها
منهم .

وسأله عما رجع به معه من الشام ؟
قال غمير : رَحتُ بكلِّ ما أملك . فهذا جرابي أحملُ
فيه رادى ، وقصعنى آكلُ فيها ، وقرية ماء أحملُ فيها
وضوئى وشرابى ، وعصاى أتوكأ عليها .
قالتُ بسمة : أهذه الأشياءُ فقط هى كلُّ ما يملك ؟
قال أبوها : إنهم أناسٌ عشقوا الزُّهد ، وفضلوا نعيمَ
الآخرةِ على نعيمِ الدنيا .

وعندما سأله عما جاء به ليت المال ، ردَّ بقوله :
— لقد وليتُ بعضَ الصالحين أمرَ حايةِ الأموال
ووضعها فى مواضعها ، وأسقتُ منها على الفقراء ،
فلم يبقَ منها ما يزيدُ لأبعثهُ إليك

فسرَّ عُمرُ لحسنِ اختيارِهِ الوالىَ الصَّحيحَ ، وجدَّدَ له
العَهْدَ . ولكنَّ عُمَيْرًا رفضَ ذلكَ ، وفضلَ البقاءَ
بأطرافِ المَدِينَةِ مع أهله .

ولم يمضِ على ذهابِ عُمَيْرٍ إلى قَرينَتِهِ بأطرافِ المَدِينَةِ ،
حتى بعثَ الخَلِيفَةُ عُمرُ بنُ الحَطَّابِ إليه من يَخْبِرُهُ
ويَسْتوثِقُ من أمرِهِ .

فطلبَ من أَحَدِ رجالِهِ ، ويُدعى الحارِثُ أن يذهبَ
إليه ، وَيَنْزِلَ عِنْدَهُ كضَيْفٍ فى مَنْزِلِهِ ، فإن رأى عليه
آثارَ النِّعْمَةِ فليَعُدْ إليه وَيُخْبِرُهُ ، وإن وَجَدَهُ فى بُؤْسٍ
شديدٍ ، فليُعْطِهِ مِائَةَ دِينَارٍ أَعْطاها لَهُ .

ونزلَ الرَّجُلُ ضَيْفًا على عُمَيْرٍ ، وقد خُصِّصَ لَهُ كُلُّ
لَيْلَةٍ قُرْصٌ مِنَ الشَّعِيرِ . ولم تَمْضِ عَلَيْهِ بِضْعَةُ أَيَّامٍ عِنْدَ
عُمَيْرٍ ، حتى جاءَهُ رَجُلٌ وَقَالَ لَهُ : لقد أَجْهَدْتَ عُمَيْرًا
وأهْلَهُ . فليسَ لَهُمُ إِلَّا هَذَا الْقُرْصُ الَّذِى يُؤَثِّرُونَكَ بِهِ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ ، وَالْآنَ وَقَدْ أَضَرَّ بِهِمُ الْجُوعُ وَالْجُهْدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ إِلَى فَاذْعَلْ .

عِنْدَئِذٍ قَدِمَ الْحَارِثُ الْمِائَةَ الدِّينَارِ إِلَى عُمَيْرَ ، الَّذِي أَبَى أَنْ يَأْخُذَهَا . وَلَكِنْ زَوْجَةُ عُمَيْرَ رَاحَتْ تَحْتُهُ عَلَى أَخْذِهَا . فَإِنْ لَمْ يَنْتَفِعْ هُوَ بِهَا لِنَفْسِهِ ، فَهُنَاكَ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا . وَبِالْفِعْلِ أَخَذَ عُمَيْرُ الدُّنَانِيرَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَبْتَ فِي دَارِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ نَصِيبِ الْفُقَرَاءِ وَأَبْنَاءِ الشُّهَدَاءِ .

قَالَ أَيْمَنُ : وَلِمَاذَا أَرَادَ سَيِّدُنَا عُمَيْرُ أَنْ يَخْتَبِرَهُ ؟ أَلَمْ يَكُنْ يَثِقُ بِهِ ؟

قَالَ أَبُوهُ : حَاشَا لِلَّهِ يَا أَيْمَنُ . وَلَكِنَّهَا طَبِيعَةُ سَيِّدِنَا عُمَيْرَ وَالْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلَ ، فَهُمْ حَرِيصُونَ دَائِمًا عَلَى تَقْصِي أُمُورِ رَعَايَاهُمْ ، وَيَجِبُ إِلَّا يَقْصُرُوا فِيهَا ، فَسُيُأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَنَعُودُ لِعُمَيْرٍ ، فَتَجِدُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ مَا إِنْ سَمِعَ مِنَ
الْحَارِثِ عَنْ مَدَى فَقْرِ عُمَيْرٍ وَزُهْدِهِ ، حَتَّى طَلَبَهُ
لِمُقَابَلَتِهِ :

وَعِنْدَمَا عَرَفَ أَنَّهُ تَصَدَّقَ بِالْمِائَةِ الدِّينَارِ كُلِّهَا ، أَمَرَ لَهُ
بِحِمْلِ بَعِيرٍ مِنَ الطَّعَامِ وَبَثْوَيْنٍ . وَبُعْزُوفِ الْقَانِعِ رَفَضَ
عُمَيْرُ الطَّعَامَ وَقَالَ : لَقَدْ تَرَكْتُ عِنْدَ أَهْلِي صَاعَيْنِ مِنَ
الشَّعِيرِ ، وَإِلَى أَنْ نَأْكُلَهُمَا يَكُونُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ
جَاءَنَا بِرِزْقِنَا . أَمَّا الثَّوْبَانِ فَآخِذُهُمَا لِزَوْجَتِي ، فَقَدْ بَلَى
ثَوْبُهَا وَكَادَتْ أَنْ تَعْرِى .

وَلَمْ يَمُضْ عَلَى هَذَا اللَّقَاءِ وَقْتُ طَوِيلٍ ، حَتَّى لَقِيَ
عُمَيْرٌ رَبَّهُ . لَقَدْ مَضَى وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا نُورُهُ وَهُدَاهُ ،
وَوَرَعُهُ وَتُقَاهُ .

وَحِينَ عِلِمَ الْخَلِيفَةُ عُمَيْرُ بِنَايَا مَوْتِهِ ، قَالَ : وَدِدْتُ لَوْ
أَنَّ لِي رِجَالًا مِثْلَ عُمَيْرِ بْنِ سَعْدٍ ، أَسْتَعِينُ بِهِمْ فِي أَعْمَالِ

المُسْلِمِينَ .

قَالَ أَيْمَنُ : لَقَدْ ضَرَبَ عُمَيْرٌ أَفْضَلَ مِثَالٍ فِي الْأَخْلَاقِ
الْحَمِيدَةِ ، وَالزُّهْدِ وَالْوَرَعِ .

قَالَ أَبُوهُ : وَالْآنَ يَا بَسْمَةُ اذْهَبِي إِلَى أَصْدِقَائِكَ ،
وَاعْتَذِرِي لَهُمْ عَنْ إِفْشَائِكَ سِرَّهُمْ ، وَاحْرَصِي دَائِمًا
عَلَى آدَابِ الصُّحْبَةِ ، حَتَّى تَتَغَيَّرَ فِكْرُهُمْ عَنْكَ .
قَالَتْ بَسْمَةُ : يَا ذَنِّ اللَّهَ سَافِعَلُ يَا أَبَى .